العقلية الإبداعية وأثرها في كتاب (المستوفَى في النحو) لابن الفرخان

م.د. خير الله خميس مصلح المديرية العامة لتربية صلاح الدين
dktwrkhyrallhalmjmy@gmail.com

الملخص:

هذا البحث يدور حول الإبداع أو الجديد في النحو، وهي فكرة قديمة وليست جديدة، ولكن التركيز صار عليها من الدارسين المعاصرين، ومن المستغرب أن أحدًا لم يعط التجديد لدى النحوي العراقي المشهور قاضي القضاة جمال الدين بن الفرخان حقّه في ذلك، بل غطّى النحوي الأندلسي المشهور ابن مضاء القرطبي على هذه الجهود، لا سيما بكتابه الرد على النحاة، الذي صار مقررا على الأقسام العلمية في موضوع تجديد النحو. ولعل عنوان الكتاب (المستوفَى في النحو) سبب ذلك الإهمال؛ فليس فيه أي إشارة إلى تجديد، أو أن يكون العنوان غريبا، بل الأهم من ذلك أن من سوء حظ هذا المؤلف ابن الفرخان ليس لديه تلامذة يذيعون مصنفاته. وهذا واضح في خلو ترجمته منهم، بل إن الآراء التي نقلتها المصنفات النحوية واللغوية ليس فيها شيء عن تلامذته، بل هي كلها نقل مباشر عن كتابه المستوفى في النحو. ولكن الجيد في هذه الجانب أن السنوات الأخيرة أظهرت له كتابين متميزين ي العروض والموسيقى جعلت الدارسين يقفون عند هذا المصنف، لا سيما أن بصمته الإبداعية التجديدية موجودة فيهما أيضا.

الكلمات المفتاحية: الإبداع والتجديد، العوامل النحوية، ابن الفرخان، المستوفى في النحو.

Abstract
This research revolves around the renewal of grammar, which is an old idea and not a new one, but the focus has been on it from contemporary scholars, and it is surprising that no one has given the renewal of the famous Iraqi grammarian, Qadi al-Qudat Jamal al-Din Ibn al-Farkhan its due right in that, but the famous Andalusian grammarian Ibn Mada' al-Qurtubi has overshadowed these efforts, especially with his book Al-Radd 'ala al-Nahhat Which has become a requirement for academic departments on the subject of renewing grammar. Perhaps the title of the book (Al-Mustawfa fi al-Nahw) is the reason for this neglect; it does not contain any reference to renewal, or the title is strange. Rather, more importantly, it is the misfortune of this author Ibn al-Farkhan that he does not have students who would spread his works. This is clear in the absence of any of them in his translation. Rather, the opinions conveyed by the works The grammatical and linguistic works contain nothing from his students; rather, they are all direct quotations from his comprehensive book on grammar. However, the good news in this regard is that recent years have produced two distinguished works on prosody and music, which have drawn attention from scholars, especially since his innovative and creative imprint is also present in them.
Keywords: renewal of grammar, grammatical factors, Ibn al-Farkhan, al-Mustawfa in grammar.

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعدُ:

فهذا البحث وقفة نحوية وصفية تتناول جزئية مهمة، ألا وهي الجدة والإبداع والتجديد في النحو، وقد شاع عند الدارسين - وهمًا - ان الإبداع لا يكون إلا لدى المعاصرين، مثل محاولات الدكتور مهدي المخزومي وجهود شوقي ضيف وغيرهما، متصورين أن القدماء لم يقدّموا شيئا ذا بال في هذا الجانب، فلا حاجة للتجديد، اعتمادًا على قوة سليقتهم وفصاحتهم، وهذا لا يعطي صورة علمية عن جهود العلماء النحويين في لساننا العربي؛ ذلك أنهم أول من بدأ التجديد أو نظريات التيسير والتوضيح له. وإذا كان ابن مضاء القرطبي (ت592هـ) قد أخذ حقّه في تعريف الدارسين بما قدّمه في هذا المجال، اعتمادا على وصول كتابه (الرد على النحاة)[1]، الذي احتفل به العلماء في القرن العشرين، ولا سيما الجامعات العربية، فإن ثمّة علماء لم يتوفر لهم ذلك، وفي مقدّمتهم عالم نحوي عراقي هو ابن الفرخان.

والمزية الأخرى التي تبرز في هذا الباب أن ابن الفرخان عالم نحوي متفنن مشرقي، أما ابن مضاء فهو عالم أندلسي، ومن المعروف أن الأندلسيين صدى لجهود المشارقة، لا سيما مع قربهم من مصادر التراث وكتبه ومكتباته العامرة في حواضر العلم والمعرفة (بغداد، دمشق، القاهرة)، فباتوا ينهلون بعد إحاطة بجهود من سبقهم، فجاءت أطروحتهم ودراستهم لقضايا اللسان العربي أكثر واقعية ودقة من غيرهم.

---

1 ومما يؤسف له أن كتابه (المشرق) قد ضاع قديما. أما كتابه (تنزيه القران عما لا يليق بالبيان) فقد ضاع في السنوات الأخيرة، إذ ذكر الدكتور النحوي السعودي عبد الرحمن العثيمين رحمه الله - في مقابلة تلفزيونية - أنه رآه لدى أحد الأشخاص، ثم اختفى أثره.

والأهم من كل ما سبق أن ابن الفرخان ليس مؤلفا فحسب، وليس مجددًا نحويًا فقط، بل هو مجدد في النحو والعروض والموسيقى، وهذا مما قلّ نظيره إن لم نقل عُدِمَ له النظير. فمن يقرأ كتاب (الإبداع في العروض) وهو - إبداع بحق - يعرف موهبة الرجل وتمكنه وإحاطته وثقافته. ذلك أنه جعل البحور الشعرية في سبعة ألوان فقط، بعدم مقرنتها بالموسيقى والأوتار، وإرجاع بعضها إلى بعض. بل تصل الأمر بهذا الرجل ان يصنع شواهده بنفسه[1]، وهذه مزيّة، تدل على قريحته شعرية إبداعية (الفرخان، 2010: 16) ويرى الدكتور خلوف أنه شاعر غزير الإنتاج.

ولم أجد من درس فكره النحوي، سوى رسالة ماجستير للباحث محمد عطا أبو فنون، في بحثه: الأصول النحوية عند ابن الفرخان في كتابه المستوفَى في النحو. في جامعة مؤتة بالأردن، 2004م.

وقد بدأ البحث بنبذة عن حياة صاحب الكتاب، وتعداد مؤلفاته، ثم بيان سبب تأليف الكتاب، ثم الانتقال إلى أبرز ملامح التجديد لديه، قياسًا بالزمن الذي عاشه، من شواهده ومصطلحاته وتفرده في بعضها، ثم مفارقته بعض النحاة في قضية القراءات.

1 هذا في جانب العروض والبلاغة متسامح فيه، أما في النحو فالأمر فيه تفصيل، لأن النحاة يتوقفون عند إبراهيم بن هرمة المتوفى في حدود سنة 150هـ. لذا ثار النحاة المعاصرون بين مؤيد ومختلف حول موضوع صنع ابن مالك شواهده، بين مَن اتهم ابن عقيل بوضع شواهده، ومن برّأه من هذه التهمة، وأنه ينقل من كتاب جلها مفقود. وأول من بدأ اتهام ابن مالك هو الدكتور نعيم سلمان البدري، والباحث السعودي فيصل المنصور.

ابن الفرخان، اسمه ومؤلفاته:

هو قاضي القضاة، مجد الإسلام، مفتي العراق، حجة الحق، مقتدى الفريقين،[1] جمال الدين، وقد توهم محقق المستوفى فسمّاه (كمال الدين)(الفرخان، 1987: 11) وتابعه (أبو فنون: 2004: 4)، والصواب ما جاء في مقدّمة (الفرخان، 2010: 11)، أبو سعد علي بن مسعود بن محمود بن الحكيم بن الفرخان(السيوطي، 1964: 206/2). وما هذه التحلية في اسمه إلا دليل على حقيقة أثره، واحترام علمه، وذيوع صيته، وقوة صوته.

و(الفرخان) اسم أحد أجداده، وقد اختلف الدارسون في ضبطه، فمحقق المستوفى ومحقق الوافي في القوافي ضبطوه (الفرخان)، أما صاحب (الأصول النحوية عند ابن الفرخان في كتابه المستوفى في النحو) فضبطه (الفُرُّخان) بضم الفاء وضم الراء المشددة(الفرخان، 1987: 11)(أبو فنون: 2004).

وقد ذكر معاصره وأول من نقل أخباره ابن منتجب الدين صاحب الفهرست، الذي قال إن الفرخان من أهل قاشان، ثم وضع بعضا من أشعاره(ابن بابويه: 227).

ولأن الدنيا فشهرة الرجل لم يحالفها الحظ، فليس ثمة ترجمة مفصلة عنه، بل كل الذي وصل بضعة أسطر(الفرخان، 1987: 12)، لا تغني كثيرا، مع أن جهده أصيل مبدع، غير متصنّع، في حين اشتهر علماء كثيرون، وجهودهم تكرار لمن سبقهم، ولا تكاد تخرج عن غيرهم.

إن مزيّة ابن الفرخان صنعته وتفنن مواهبه(الفرخان، 1987: 31)، فقد ساهمت في تميز نظرته للنحو، من خلال ربطه بغيره من الفنون والعلوم لغرض التسهيل والتقريب، حتى لا ينفرَ الدارس والقارئ من النحو العربي بحجة صعوبته وشيوع المنطق فيه. وهذه قضية لا يكاد ينتبه لها إلا من أوتي حظًّا من النظر في

1 وهذا يذكرنا بقاضي القضاة بهاء الدين بن عقيل المصري (ت769هـ)، صاحب الشرح المشهور على ألفية ابن مالك الأندلسي في النحو (ت672هـ). ولكن ابن الفرخان عراقي، وابن عقيل مصري.

بواطن الأشياء، بل الشائع المعروف أن اقتصار النحوي على النحو، وعدم إجادته أي فنّ آخر مما يميزه، بحجة أن هذا الاقتصار يكتب لها قوة النظر، ولا يشتت الجهود.

أبرز مؤلفاته:

1- المستوفَى في النحو. حقّه ونشره وقدّم له وعلّق عليه مع دراسة مفصلة الدكتور محمد بدوي المختون، وقد طُبع في دار الثقافة العربية، في القاهرة، سنة 1987م. وقد اعتمد نسختين خطيتين.

ثم نشرت بدرية بنت أحمد الغامدي (فصل التمييز) من الكتاب، في مجلة البحث العلمي في الآداب، أكتوبر 2020م. ومع أن الكتاب منشور قديمًا، لا أن الباحثة رأت أن ثمة ملاحظات على عمله دعتها إلى نشر فصل التمييز(الفرخان، 1987: 17). واعتمدت أربع نسخ خطية. ويحسب لها أن حواشيها مفصلة، بل تصل حد الملل.

2- الوافي في القوافي. حقّقه ونشره نشرة علمية رائقة الدكتور العروضي السوري عمر خلّوف، ونشرته هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، سنة 2010م. اعتمادا عل نسخة خطية فريدة في إسطنبول بتركيا.

3- الإبداع في العروض. حققه ونشره بشكل وافٍ شافٍ الدكتور عمر خلّوف. وصدر عن دار اللباب للنشر والتوزيع في إسطنبول بدولة تركيا، سنة 2024م. ونسخته الخطية فريدة، موجودة في نفس المجموع الخطي الذي يحتوي كتاب الوافي في القوافي.

وهذا الكتاب مثال على تميز ابن الفرخان وتعدد جهوده وإبداعه؛ لأنه قارن فيه بين العَروض والموسيقى في اللغة العربية والفارسية، محاولا الاستفادة منهما لخدمة لغة القرآن الكريم.

4- الشامل في علم البلاغة(الفرخان، 2010: 15). والكتاب ليس موجودا في هذا الزمن، بل ضاع قديما.

أما وفاته فليس من خبر حول تحديدها بدقة(الفرخان، 2010: 12)، بل كل ما في الأمر أنه توفي قبل سنة 600هـ، بدليل الشيوخ الذين نقل في كتبه عنهم. وليس صحيحا ما ذكره د. مصطفى أحمد النماس محقق كتاب ارتشاف الضرب لأبي حيان النحوي أن ابن الفرخان توفي سنة (548هـ)، فلا يوجد دليل على الرأي(أبو حيان، 1989: 480/1)، (أبو فنون: 2004: 7).

سبب التأليف:

يقول في مقدّمة كتابه: "وبعد فإني لما تصفحتُ عامة الكتب المصنفة في النحو، وجدت موجزها يقتصر على الواجب فيه، ومبسوطها يربى على المحتاج إليه منه، ومع هذا فإن أكثرها كان مشوشا في ترتيبه، وغير أنيق في تقسيمه وتبويبه"(الفرخان، 1987).

فالمؤلف يؤكد بشكل لا يقبل الشكّ أنه وضعه بعد الاطلاع على كتب النحو مختصرها ومطولها، وأن منهجه وسط لا هراء ولا نزر.

ولقد حاول ابن الفرخان في هذا الكتاب أن يغني قارئه عما سواه، لأنه ينطلق من فكرة الأصول والمبادئ، ذاكرًا أن الأصول له مبادئ، والفقه له مبادئ، وعلم الهيئة له مبادئ، وأيضا الطبّ والموسيقى.

ولكن الذي يرفع محاولة ابن الفرخان أنه منتبه إلى ضرورة وجود قوانين للعلوم تجمع شتاتَها، ولا تفرّط بأصولها. وهذه من صفات النحاة البغداديين، ولكن البغداديين قريبون على المدرسة البصرية غالبا؛ بدليل قوله بعدم نيابة الصفات. ومن الأدلة المهمة النقل عن أساتذة النحو الكوفي(أبو فنون: 2004: 14).

ونتيجة لهذا تنبَّه القدماء إلى أهمية آراء ابن الفرخان، فنقلوا كلامه عرضا وشرحا وتفسيرا وتأييدا(أبو فنون: 2004: 10).

الاستشهاد:

الاستشهاد بالقرآن الكريم. ونحن نعرف أن النحاة قليلو الاستشهاد بالآيات الشريفة، بل كثيرو الاستشهاد بالشعر العربي. بل أورد عددا من الأحاديث النبوية الشريفة، وهذا يحسب له، إذ المعروف أن النحاة قليلو الاستشهاد بالأحاديث الشريفة. والشعر في 416 موضعاً (الفرخان، 1987: 36)(أبو فنون: 2004: 18).

القراءات القرآنية: والمعروف أن جهود النحاة في القرآنية السبع متفاوتة، بين من يأخذ بها، ومن لا يذكر اسم القراءة اعتمادًا على قدسية النص القرآني العزيز(الفرخان، 1987: 10).

منهج المؤلف:

أما منهجه فمختصر، يحاول ألَّا يشرح شيئاً إذا كان شرح ما يناظره، مثل بئس ونعم، اكتفى بشرح أحدهما.

فحينَ عرّف النحو قال: صناعة النحو، موضوعها اللفظ العربي، لكن ليس على الإطلاق بل من جهة ما يتألف مع غيره من الألفاظ. فهو النحو صناعة علمية ينظر لها أصحابها في ألفاظ العرب من جهة ما يتألف بحسب استعمالهم لتُعرف النسبة بين صيغة النظم وصورة المعنى، فيتوصل بإحداهما إلى الأخرى(الفرخان، 1987: 11).

فالمؤلف ربط النحو بمعاني النحو أو علم المعاني في البلاغة العربية، والتي طورها عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم، وجعل للنحو العربي روحًا وليس ألفاظا فقط.

ويتميز أيضًا منهجه التعليمي بدعوة القارئ إلى التبصر والتفكير والتدبر، وهذا لا نجده في كتب النحو كثيرا.

ومن ملامحه الاهتمام بموضوع العلة. وهذا أمر متميز، بل يسهل النحو على طالبه، لأنه يجعل لكل ظاهرة تفسيرا راسخا في عقله. ولا يستبعد ذلك إذا ما

عرفنا أن زمن ابن الفرخان شهد ظهور أبي البركات الأنباري، الذي أغرم بالتعليل والتفسير والقياس وغرائب النحو ونكته.

مثال ذلك شرحه موضوع أصل (مذ) بأن أصل (منذ)، وأن أصل (كأنّ) هو (أنّ)، و(كان) هو (كأنّ). يقول: "ومما يجب أن نذكره هنا أن (مُذْ) قد يلاقي (الذال) منها ساكن بعدها، فمن حقّ (الذال) أن تحرك على الضم إشعارا بالأصل، فهو يدلّك على أنّ (مُذْ) من (منذُ) و(كأنّ) من (أن) و(كان) من (كأنّ) (الفرخان، 1987: 96).

ومن آرائه المتميزة: إلا للاستثناء و(غير) للوصف

يعتقد ابن الفرخان أن (إلّا) أصلها للاستثناء فقط، أما (غير) فهي للوصف، إلا أنه يدخل كل واحد منهما على الآخر، فيتبادلان المعاني، وهذا يحدده السياق(الفرخان، 1987: 316). مثال ذلك قولنا: جاءني القوم غير زيد، فقد استثنى بغير، وإن كان أصل عملها الوصف. ومن الوصف بالا قوله تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)[الأنبياء: 22].

التكرير أساس للتوضيح وليس مصطلحا نحويا

ساق ابن الفرخان التوكيد أو التكرير اللفظي وأجراه للتوضيح وليس لغاية نحوية. قال: "الإتباع إذا كان على سبيل التكرير سمّي تأكيدا، وذلك أن التكرير إما أن يكون في اللفظ والمعنى كما في قول القائل: مررتُ ببشر بشرٍ(الفرخان، 1987: 18).

بشكل مختصر شرح بدل الاشتمال قائلا: بدل الاشتمال أحد أنواع البدل(الفرخان، 1987: 111).

أصل (هلمَّ)

مما يتميز به اختصار الشروح والخلافات في المسألة بشكل موجز مكثّف. يقول: "فأما التركيب في الفعل فقليل جدا، وهو على ضروب: أحدها نحو: هلمَّ،

فإنه مركّب عندنا من (ها ولُمْ) وأما عند الكوفيين فمن (هل وأم) (الفرخان، 1987: 18-19).

ليس في الاستثناء حرف

عد ابن الفرخان الفعل الماضي الناقص (ليس) حرفا في الاستثناء، وهذا من غرائبه وتفرّداته، والفرخان قد خرج عن كون (ليس) فعلا وعدها حرفاً في الاستثناء بقوله: وأما (ليس) فيحتمل أن يكون حرفاً للاستثناء ك- (إلا)، ومما يعضد هذا أنه استوى فيه المذكر والمؤنث، يقولون: أتتني ليس فلانة، ويحتمل أن يكون هو الذي قد ذكرناه في باب كان وأخواتها(الفرخان، 1987: 317).

والاحتمال الأخير هو كونها فعلا فقد انفرد الفرخان بهذا الرأي وهو كون ليس حرفاً في الاستثناء بعدما أورد. تعليله بخصوصها، وهذا يؤكد سعة ثقافته وعدم تعصبه لمذهبه النحوي(أبو فنون: 2004: 147).

(على) اسم وليس حرفا

"لقد خالف المصنف أغلب النحويين من المدرستين في نظرتهم أن (على) اسم دائماً في كل الحالات، وقال بها أيضاً ابن الطراوة وأبو علي الفارسي والشلوبين اسماً دائماً معرباً: لأنها لا يظهر فيها علامة البناء من شبه الحرف، في لا حرف في معناها، وقلة تصرفها لا يوجب لها البناء (السيوطي، 2010: 357/2).

يقول المؤلف: "ولما (على) فإنهم ذهبوا إلى أنها تستعمل تارة اسماً وتارة حرفاً، فكونها اسماً إذا دخل عليها (من) ا لأنه بعض حروف الجر، وكونها حرفاً إذا جاءت ولم يدخلها من والذي أراه أنا أن الأشبه بعلى أن تكون في جميع الأحوال اسماً مشتقاً"(الفرخان، 1987: 354).

فقد أقر الفرحان باسمية (على) كابن الطراوة وأبي على الفارسي والشلوبين بعد عرضه آراء النحاة فيها، وقد دافع عن رأيه وعدّ (على) منصوباً على الظرفية

يقول: "انتصابه من حيث أنه بُني على الظرفية، كما تجعل (السفل) ظرفاً في بعض الأوقات، قال الله تعالى: (والركب أسفل منكم)[الأنفال: 42]. فإذا دخل عليه من انجر، كما تقول: فوق الأرض، فإذا دخلت (من) جررت فوق فقلت: من فوق الأرض يذلك على هذا أنهم يقولون من (علام) فيحذفون المضاف إليه كما يقال: من فوق) بالضم، فلولا الألف لظهرت الهمزة عارضة للبناء(الفرخان، 1987: 354)(أبو فنون: 2004: 147).

إعمال اسم الزمان والمكان

تمسَّكَ ابن الفرخان بإعمال اسمي الزمان والمكان مثل اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة بهما(أبو فنون: 2004: 149).

جاء ذلك في حديثه عند قول الله تعالى: (النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله)[الأنعام: 128]. يقول: "وقد رابني من هذا أنني لا أراهم يستعملون إغارة ههنا مكان مغار، ولا ما هو نحو ثواؤكم مكان قوله تعالى: (مثواكم)، فلا يبعد أن يكون الاسم المشتق للزمان أو المكان معملاً، كما أن أسماء الفاعلين والمفعولين والصفات المشبهة بها معملة؛ لأن مفعلاً هذا قد يوصف به كما قد وصف بتلك قال: (البحر الطويل)

غدت من عليه بَعْدَمَا تَمَّ ظمؤها تصل وعن قيض ببيداء مَجْهل

وأيضاً قد يؤنث هذا على وجه كما يؤنث تلك، يقال: منحى ومنحاة، ومجر ومجرة، وأيضاً يكون هذا على وزن المضارع كما أن اسم الفاعل كذلك"(الفرخان، 1987: 279)(أبو فنون: 2004: 149).

ولم أجد رأياً مشابهاً له فيما بين يدي من كتب.

وخلاصة القول إن الفرخان بصري النزعة أكثر من المصطلحات البصرية Activat واعتمد الكثير من الآراء النحوية البصرية وتجنب الآراء الكوفية إلى حد ما، وهذه Go to Se كلها دلائل على نزعته البصرية وميله إليهم(أبو فنون: 2004: 147).

الإبداع في الإفادة من القراءات القرآنية

القراءات القرآنية ولا سيما القراءات السبع حجة[1]، لا يمكن إلا الإفادة منها وتسخير دلالاتها خدمة للغة القرآن الكريم، مصداقا لقول الله تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، واعتمادًا على قول النبي العظيم محمد صلى الله عليه وسلّم: (أُنزل القرآن على سبعة أحرف). والنحاة يتابعون في ذلك أبا النحو سيبويه، الذي لم يخطّئ قارئا واحدا، ورأى أن ذلك دليل على ثراء القرآن الكريم وإعجازه.

ويظهر ذلك في مواطن كثيرة، منها قول الله تعالى: (يُسبّح له فيها بالغدوّ والآصال رجالٌ)[النور: 36]، إذ أخذ ابن الفرخان بهذه الآية دليلا على الفعل المقدّر، ف- (رجالٌ) مرفوعة بفعل مقدر تقدير (يسبّح رجالٌ) (الفرخان، 1987: 161)(أبو فنون: 2004: 23). أما النحاة المتأخرون فرأيهم أن (رجالٌ) نائب فاعل للفعل يسبّح، فلا حاجة عندهم إلى التقدير (يسبّح رجال)، وهذا رأي بعض النحاة المتميزين، مثل أبي علي الفارسي والواحدي المفسر وأبي حيان النحوي(الفارسي، 1993: 326/5)(الواحدي، 2011: 16/ 294)(أبو حيان، 2017: 209/6).

إن التجديد النحوي أو الفكر النحوي لدى صاحب المستوفى لا يمكن فصله عن جهده التجديدي المشابه في العروض والموسيقى، فالرجل مولع بالإبداع والجدة.

من مظاهر الإيجاز لديه والاختصار أنه لا يذكر مصادره بل اكتفى بذكر سيبويه وكتابه، مع اعترافنا أن الرجل صاحب نظرة وآراء جديدة، ولكن كتابه والنحو عموما مرتكز على فكرة أخذ اللاحق من السابق.

1 لأن القراءات العشر والخمسين فيها نقاش بين العلماء.

غايته التسهيل: أنْ أُقرِّبَ البعيد، وأسهل العويص، وأجمع فيه إلى الإيجاز التبيين، وإلى الإيضاح التلخيص،... مع إلقاء القول فيه على سبيل الإجمال دون التفصيل (الفرخان، 1987: 3-4)(أبو فنون: 2004: 10).

فجاء الكتاب مختلفا عن الكتب الأخرى المشوشة غير المرتبة وغير المقسّمة والمبوّبة، سليمًا من عيوب الكتب الأخرى، فهو كتاب واضح سهل وموجز وملخصٌ استوفى فيه صاحبه مختلف الأبواب النحوية مع البعد عن التفصيل والإطالة(أبو فنون: 2004: 11).

مثال إيجازه: وباقي الأحكام فعلى ما ذكرنا في اسم الفاعل، فتعرّفها من ثَمَّ (الفرخان، 1987: 147).

ومما يحسب له دمج كثير من الأبواب تحت عنوان جامع. فقد وضع الفعل والفاعل عنوانا لكثير من القضايا منها: المبني للمجهول والتنازع ونعم وبئس وكاد وعسى وأنواع ما، والتعجب واسم التفضيل وغير ذلك(أبو فنون: 2004: 11).

ولغته تتراوح بين السهول والصعوبة، مع ميلها أحيانا إلى الصعوبة، وليس ذلك بمستغرب، إذا عرفنا حجم الكتاب الكبير، وأنا مؤلفه شاعر وناثر ورياضي وقاض، فله معجمه الخاص وعبارته الدالة على معان تفهم من السياق. فضلا عن الاختصار الذي يجعل العبارة مركزة مكثفة.

يعتمد بشكل أساس كتاب سيبويه، اختصار ووضوحا، فإذا حضر الماء بطل التيمم. ثم يأتي دور النقل عن العلماء وليس عن مؤلفاتهم، وهم أئمة النحو وعلماؤه الفراء والأخفش الأوسط، يختصر كثيرا على منهجه بطريقة: فقد ذهب كثير من النحويين. ومن النحويين من قال(أبو فنون: 2004: 13).

عباراته الدالة على منهجه التعليمي التدبري

عبارته يوجد فيها فن السجع، وليس هذا بمستغرب، إذا ما عرفنا أنه شاعر ناثر له عبارته وأسلوبه. ومن أبرز الكلمات التي تؤكد ما أقوله:

فتبصر.

ولا يصور لك هذا إلا الشفاه منا أو التجربة منك. فافهم (الفرخان، 1987: 7).

فتأمله بعون الله(الفرخان، 1987: 364)

وأراك تفطنت له فاعتبره.

تحقق هذا بالحواس يرح سرك(الفرخان، 1987: 48-49).

والله أعلم بما أراد (الفرخان، 1987: 67/2)

فعليك بنقل البيان

فتأمل الأصول وقس (الفرخان، 1987: 32/2)

فتأمل هذا وقس عليه ما سواه (الفرخان، 1987: 242/2)

تأملها واعتبر المداخلات (الفرخان، 1987: 2/ 178)

أنعم النظر (الفرخان، 1987: 2/ 249)

وبحسب ما تتحققه بعد إن شاء الله (الفرخان، 1987: 2/ 104).

إبداعه في المصطلحات

مصطلحاته في الغالب متأرجحة بين البصريين والكوفيين، وإن كان يميل إلى البصرة(أبو فنون: 2004: 132). ولكن تفرّد ابن الفرخان بمصطلحات لم أجدها عند غيره من النحاة واللغويين:

المراقبة: القراءات (الفرخان، 1987: 37)

والمحرف أو المحدود: هو المعدول، ومعناه لديه العدْل. مثل زُفَرٍ وزافرٍ، وعُمَرَ وعامرٍ (الفرخان، 1987: 69).

ومن تفرّداته مصطلح (المعلم)، ويعني به الفعل المعروف الذي يحتوي ضميرا(الفرخان، 1987: 39). "فأما المعلم الماضي إذا كان مصوغا للمؤنث الغائب مفردا أو مثنى، وجميع أصناف المستقبل وما يجري معه، أعني النهي، فالعلامات هي التاء في آخر الماضي للمؤنث وفي أول المستقبل لمن يتوجه إليه

الخطاب، سواء كان واحدا أو كثيرا، مذكرا أو مؤنثا، وللغائب المؤنث مفردا ومثنى. والياء للغيبة مع التذكير كيف اجتمعا، ومع التأنيث مع الجمع. والهمزة للمتكلم (الفرخان، 1987: 19).

الخاتمة

بعد هذه الوقفة مع العالم المتفنن الموسوعي النحوي مفتي العراق جمال الدين بن الفرخان، يمكن القول إن هذا الرجل يستحق أكثر من دراسة حول جهوده وآرائه الصريحة، التي تميز ببعضها مخالفا نحاة البصرة والكوفة، بل يُسحب لها أنه من أهل القرن السادس، ومن المعلوم أن العلماء والنحاة في ذلك القرن وما بعده لم يأتوا بآراء أصيلة جديدة، بل كانت جهودهم تكرارا لمن سبقهم، فما ذكره ابن الفرخان يستحق لإشادة والإعجاب.

تفرّد ابن الفرخان ببعض الآراء النحوية في باب البدل وأصل هلمّ، وإعمال اسم الزمان والمكان.

تميّز في جانب الاستشهاد بآيات القرآن الكريم بشكل صارخ وواضح، وعلى غير عادة النحاة واللغويين. الذين لا يكثرون من الاستشهاد بالشعر الجاهلي، ولكن هذا لا يعني تفريطه بالشعر، بل وقف عنده كثيرا.

تميز في الأخذ بالقراءات القرآنية، مع أنه لا يبيّن اسم القارئ، وليس هذا بمستغرب، إذا عرفنا أن هذا من أساليب القدماء. وابن الفرخان حتى في الآراء النحوية لا يحدد صاحب النقل. بل يعرف ذلك من خلال الاطلاع والدربة.

يقترح البحث أن تكون ثمة دراسة لآراء ابن الفرخان بمن سبقه من النحاة، واعتمادا على المنهج الإحصائي الذي يفيد في بيان أثر السابق في اللاحق.

المصادر والمراجع

- ابن بابويه، فهرست منتجب الدين.
- أبو حيان، 1998م، ارتشاف الضرب، تحقيق: مصطفى أحمد النماس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1.
- أبو حيان، 2017م، التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، تحقيق: حسن هنداوي، دار كنوز إشبيليا، الرياض.
- أبو فنون، (محمد عطا)، 2004م الأصول النحوية عند ابن الفرّخان في كتابه المستوفى في النحو، رسالة ماجستير، بإشراف يحيى عطية عبابنة، جامعة مؤتة، الأردن.
- السيوطي، (جلال الدين عبد الرحمن ت 911هـ)، 1964م، بُغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط1.
- السيوطي، (جلال الدين عبد الرحمن ت 911هـ)، 2019م، همع الهوامع شرح جمع الجوامع، دار الحديث، القاهرة، ط1.
- الفارسي، (أبو علي النحوي ت377هـ)، 1993م، الحجة في القراءات السبع، تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجابي، راجعه ودققه: عبد العزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، ط2.
- الفرخان، (علي بن مسعود بن محمود الحكم)، 1987م، المستوفَى في النحو، تحقيق: محمد بدوي المختون، دار الثقافة، القاهرة.
- الفرخان، (علي بن مسعود بن محمود الحكم)، 2010م، الوافي في القوافي، تحقيق: عمر خلوف، مجمع أبو ظبي للتراث، أبو ظبي، ط1.
- الواحدي، (أبو الحسن ت 463هـ) 2011م، التفسير البسيط، تحقيق مجموعة من العلماء، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1.